حرام قطعا

قصة

بقلم

محمد الخضري عبد الحميد

ـ من منكم قال ان الطلاق حلال؟.. اعد علي هذا يا أستاذ .. انه حرام وابغض الحرام! .. انه حرام قطعا!.. اكتب هذا ياسيدي من لساني .. وعلى مسئوليتي ..!

في الواقع انه كان يمكن اعتباره رأيا نطق به صديقنا «عبد الماطي» في معرض احد آراء « الشلة » ! .. غير ان الانفعال العنيف الذي اجتاح عبد الماطي الغريز وهو يدلي للصحفي الذي اخذ يسجل آراءنا في تحقيقه ، جعلنا جميعا نرمقه في دهش وعجب ! .. فالامر عادي لا يستأهل كل تلك الحماسة المندفقة من صديق ، عاشرناه حديثا ، فعهدناه وقورا ، وما ألفنا ان نراه الا متزنا هادئا صموتا .. !

ويبدو ان (عبد الماطي) قد ثاب الى وعيه ، وادرك من المعاني الصامتة الطافحة في عيوننا ، انه تسرع .. او لنقل نفسه بغير داع، فحاول ان يردف ضحكة عالية تعقيبا على ما قال ، ليبدو الامر وكأنه اعتيادي .. وكان الرأي الذي قيل على ذلك النحو ، انما جاء بصورته تلك من باب التطرف في الصياغة من باب التأثير على المستمع مثلا .. او على محمل المزاح المصنوع بالجد ، ليس اكثر !

بيد أن محاولته لم تنطل على اي من الجالسين في شرفة « كازينو اوبرا » عقب ارفضاض ندوة (نجيب محفوظ) ـ حتى الصحفي صاحب الاستطلاع كان اكثرنا اهتماما بالامر .. وهكذا انقلب الموضوع من ندوة ادبية صغيرة للاستفتاء وجمع الآراء حول مشكلة الطلاق .. الى « لجنة » مشكلة ـ كأننا شكلنا خصيصا ! ـ للتحري والتقصي في ظاهرة حماس السيد عبد الماطي في حكاية الطلاق ، ولم وكيف يصنعه بأنه حرام .. بل وأبغض الحرام .. بل وحرام قطعا !

وسرعان ما تغلبت حمية المجموع على تحفظ الفرد .. فتداعت استحكامات

عند الغضى ... وانقضت ـ اصفرارا وعلى الرغم منه ـ مغاليق قلبه !

ـ « ... ستزون انني محق .. فلست ارى في الطلاق حلا لاشكال . او بروءا من داء ! .. فلقد طلقت من قبل ! ... طلقت (ليلى) ! .. ولست لومكم ـ لا ولن اعاتبكم ـ اذا انتم انتحرتم الآن ضاحكين ساخرين ثم اوسعتموني من فوركم سخرية ولدغا ! فظواهر الامور قد تحركم الى شيء من هذا ، ولا تثريب عندئذ ـ وكما قلت ـ ولا عتاب !

احل ! .. عبد العاطي طلق ليلى ! (وايه يعني) !!.. واحد من مئات طلقوا ، وآلاف يطلقون ! .. اوليس هكذا ، وعلى هذا النحو ، تفكرون ! ولكني اقول لكم ، كم انتم ـ لو انكم فعلتم ـ مخطئون ! فعبد العاطي وليلى .. لم يكونا مجرد زوجين جاء الطلاق ـ (صحح الوضع) بينهما !

انا شاب ـ وكلكم تعرفوني ـ من النوع «المعلق» ! ارض فكر ! ودنيا عذراء مفتوحة على « مكاسبها » من سكينة النفس ، واناقة الفكر ، ورهافة الحس ... والبعد كل البعد عن مجال العواصف والانواء !

وانادر فاؤكد انني عاطفي ! . حذار صدقني يا مريونا المحرر الصحفي ولكن ليست هي العاطفية الهوجاء التي تتخيلون فكمثال .. كنت اعشق من شغاف القلب لقطة مشحونة بحرارة الشعر اراها على الستار الفضي من احدى ممثلات السينما ! . قد ارى محيا ناضرا يتفجر شبابا ورواء ، وسحر انوثة ، فاظل اهيل على كتب من تسع هذا (الجلال) في تهجة العابد الصامت ـ صادق التقى والورع ـ دون محاولة الاقتراب العملي . والاشتباك السافر !

سامضي في قصتي قدما، اذا وعدتموني ان ! لا تفكهة ، ولا تعليق ساخر !

عشت صابا بقلبي « السليم » ان اطرحه في (سوق) الغرام العادي المتذل . شعقه عليه . وتكريما لتضاعته ان تداس في ساحات الهوى الاثيره . وتذهب احلامي العالية بدد . وابوء بالعذاب والحسرات ..!!

انا معكم في انه قد يكون هذا شيئا من الشذوذ .. غير انكم لو سمعتم معي قليلا لادركتم ان لا شذوذ ولا (شور) هنالك ! والا فلماذا . وبعد ان احل قلبي احلام منزله هذا المكان السامق، اسمح لي وله ان (نرتل) الى سنوى حب رصيف الاتوبيس ، ومغامرات سطح الهرم وذكريات هوج من وحي الطريق الصحراوي والتصادمات رخيصة سهلة لم تعد ـ في عصر الصاروخ والتليفزيون ! ـ تكلف كثير جدق . او قدسية تزال ؟! .. لا لا ! .. ثم لا ... !!

وعلى هذا فقد اعمت حول قلبي سورا ، وتدرته لمحبة تتدق ذراها ورصيده من شاعرية الهوى ، وجلاله وصحامة مفهومه !

ومضت ايامي وانا بعد النهج سعيد ! بعد سعيد ! فالعاطفة النقية ـ كما جربت ـ تلهمني حب للحياة وللناس اعمق واغزر .. واحيى ماكنت احتاج ان انزل قلبي الى المعترك السائد، فلا احتى سنوى الصدمة لنفسي والعطب لقلبي !

ولكن .. وهنا تأتي الرياح .. ! جاءت الرياح كما لاتشتهي السفن !

ذات ليلة لا انساها .. كنت اعكف في حجرتي على وضع قصيدة التي قرأها بجمال بلدي وتصاوره عوده الى وهو يشق طريقه الوعر وسط جسام المصاعب .. وطرق الباب .. و .. ودخلت ليلى ..!

اولا .. ليلى — ايها الاعزاء — ليست كما سوف تتوهمون .. كاعب حسناء ولا هي (رشيقة) ولا اي شيء مما سيخطر في بالكم من مثيلات تلك النعوت والصفات التي اعتاد على استعمالها القصصيون ونحن معشر الشعراء .. !

ليلى فتاة عادية سمراء في ربيعها السابع عشر .. وسيمة ، متعلمة ، من خراتنا المكافحات الطيبات .. دخلت تتعثر في خجلها والحياء العذري الذي يقتحم كل الحواجز والسدود .. وفي صوت رقيق متلعثم قالت :

— استاذ عبد العاطي .. لا مؤاخذة .. اصل انا خجلت اكلمك في الشارع ..

— آسفة ليلى ؟ .. اهلا .. تفضلي .

— شكرا .. آ .. ممكن والله احد عندك مرجعا في (الاقتصاد) ؟

— آ .. طبعا موجود .. الآنسة ما ترى .... ؟

— ناوية ادخل مسابقة .. ودرست .. ولكن .. هناك نقاط تلزمها مراجع ..

— تفضلي .. هذا المرجع موسوعة واضحة .. و .. وعلى العموم .. انا .. انا يعني على استعداد لشرح اية نقطة غامضة .. او .. يدق فهمها ....

— شاكرة جدا ...

تركتني وخرجت .. وبعد يومين عادت .. وبعد اسبوع جلست قليلا .. وبعد اسبوعين احببت .. انتهوا لي جدا .. شيء يسير من النور لجراحها الناعمة الرقيقة !

كرهت منها هذا «التهجم» الاصراري على « المحراب ! » الهادىء ، العارق في الدعة والسكون ! .. ولم تلبث هذه المشاعر أن تحولت الى .... خوف !!

تصوروا ... خوفا ! ، خوفا عليها هي .. مني انا !!

اني ادرك الآن المعاني الحبيثة او البريئة التي ستستحضر اليها استنتاجاتكم الطائشة ! .. ليس كما ستظنون انني خشيت عليها من « عدوان » قد يقع مني ! .. ابدا ابدا .. لقد خفت عليها من شيء انا ادري به لانه ، وكما قلته لها ، كان هكذا :

ـ آسة ليلى .. انا سعيد بصداقتك الطاهرة .. يشلع صدري انكبابك على التثقيف والاستزادة من العلم .. ولكني مضطر الى ان اكون قطا بعض الشيء فارجو أن تشفقي على نفسك ، فلا تمدي بصرك لابعد من هذا !

ودهشت ليلى ! .. صدمت ! .. روعها ذلكم القول الجهم العجيب .. !

وكنت اعلم ، ولكن بصبر راض ! . فلم تكن عملية « هدم احلام » بقدر ما كانت رغبة صادقة بقية في حماية عالمها الخاص من زلازل ما كان هذا مقر من حدوثها ! ..

ولم اتركها طويلا في الحيرة القاسية التي سببتها لها كلماتي !

ـ يا ليلى .. انا ارق مما تتصورين .. فهي اذن ليست قسوة مني اذ اصارحك من الآن بانني اخاف عليك من وهج قلبي ! .. اقول هذا وانا اوقن ان « كلمة حب » قد ربضت الآن على شفتيك تتاهب للانطلاق ، فانا اراها منجذبة الى الاندفاع ! .. لا تقوليها يا ليلى حتى اقول انا لك ما ساورني من قلق وضرع عليك ! .. ان قلبي يا ليلى بركان مخندم الاوار ، فلا تعرضك الثلوج التي تغطي سطحه البارد ! .. اشفق عليك من اتونه الملتهب الموار .. و .. ماذا تريدون بالله بعد هذا ؟!.. اوليس قولا واضحا جليا ؟!

انها ليست لفظة «رومانسية» من من تحفة كلاسيكية .. ولكنها صورة صادقة قدمها انسان أمي بشيء فراح يحذر عزيزا لديه من الوقوع فيما يؤمن بما لا مندوحة من حدوثه .. قبل أن يحدث !

ولكن ليلى ـ يا أعزائي ـ كانت .. تحبني !

وانا ـ لاانكر ـ احبها .. !

وما ان رايتها « أهلا » لامتلاك كل الرصيد المدخر بين الجوانح ، حتى فتحت لها ـ على امتداد المصاريع ـ مغاليق الخزائن ... !

وتفجر حبا فريدا .. بركانيا .. يريده تقدم الايام توقدا وضراما .. كنا نعيش معا فوق ذرى شواهق عبقات لعاشقين آخرين ان يحلما بالوصول الى (سفوحها) !!

حتى انسبكت على البركان الملتهب ثلوج الطلاق ... !

طلقت ليلى ! .. عانى حبنا ـ كما ولد ـ قريبا .. « غير عادى » ، فلما سمح كلانا للعواصف المعتادة ان تتخذ لها مدارا حول كوكبنا .. بدأت تنمو الجليد تساقط على تراكمنا المتراجح ، فاخذت حرارته تتجمد رويدا ، حتى اطفأت آخر جذوتها وثيقة «المادون» !

وعشت بعيدا عن ليلى ، وقد رحت اعيد ترتيب « اطلال ! » معبدى القديم ، من جديد ! .. وتتوالى الايام هالنى ان افتقد « السكينة » التى كانت تربى على قبل ان اعرف شيئا اسمه (ليلى) !

ورحت استعيد فى حلواتى ظروف خصامنا .. فاذا بى اراها على البعد تافهة صغيرة سخيفة ، وهى التى كانت ـ ايان جذوتها ـ مضحكة مكررة من اجرامها الحقيقية بعشرات الامثال ... !

حادث عرضى انفردت ليلى بالفصل فيه ، فوارت كرامتى ... !

امر بسيط طلبت الجازة .. فتوانت .. فثارت ثائرتى .. ! تأخير بسيط منى خارج البيت .. فعاتبتنى بعصبية .. فتلقت الزجر والتانيب منى !

توافه ! .. انها كلها تبدو لى توافه ! .. افتراها هى قد ادركت هذا الآن ؟ ! . ها نحن قد افترقنا وقد حصلنا على الطلاق .. وانى لها الهروب من حصاد الذكريات التى بذرناها ، وجنا قطوفها سويا ؟ !

وانقلب جذوتى عذابا محضا .. ولم استطع ان اقطع فى الامر بحكم ما .. وكنت لا اعدم ان ارى ليلى فى غدوى او رواحى ، فلا تسىء سحنتها الهادئة المستسلمة لواقعها الجديد بشعور معين ! .. حتى دين لى شيطانى الاقدام على حركة « مجنونة » معلى ! .. اعلنت فى الحى كله نبأ خطوبتى الجديدة !

وعرفت بعض نسوة بيتى ! .. وشرب الجيران (شربات الفرح) الجديد! فليلى ساكنة صامتة .. بل واكاد اقول انها (طيبة للغاية) !

وصرت وقد طاش سهمى الاول ، دون ان يأتى الى بصيدى ! وكنت ارى ليلى لماما فكانت تتنكب طريقى محاولة أن تظهر انها لم «تتشرف» يوما بمعرفتى ! .. وعندئذ قررت فى حد ان لا يضيع « شربات » الاول هدرا .. وان تكون خطبتى حقيقة لا وهما !

وهكذا رأى الجيران ـ لاول مرة ـ (سلوى) تزورنى ، وتسير برفقتى ! ـ

وبدأت اعد العدة لـ (ضبط) عواطفى على شخصية سلوى فشلت كل جهودى فشلا ذريعا ، ووضح لى بما لا يدع للشك مجالا ان هيهات لى ان اهنأ مع غير تلك التى قاسمتنى ايام صعوبتى وكدرى ! .. حسنا .. ولكن ما لنا نهنا وها هى تحيا راضية بدونى ؟!

سؤال لو لم تات الاجابة عليه فى اوانها لحدث ـ لى ولها ـ عذاب هائل ما كان لاى منا ، كليهما ، مناص منه ..!

علمت ذات صباح ان ليلى مريضة .. وحاولت ان انأى بفكرى عن ملحقات النبأ فلم استطع .. فان (ليلى) هى ليلى على اية حال ..!

وما اشعر الا واحدى قريباتى تنبئنى بان ليلى جاهدت كثيرا لتؤدى دور

للاهتمام بشيء ، فلما لم تقو على تكملة الدور جرت صريعة الاسفاق والضلال فوق سريرها ... !

لقد كانت تظهر امام الناس طبيعية .. فاذا ما خلت الى نفسها سكبت دم قلبها الجريح ، ودوت روحها الهيام ، حتى اكتشف اهل بيتها ... سرها !

عند ذاك أدركت (سلوى) في حزم ان لا تطمع في شيء مني ، فما عدت أصلح لها ، ولا لأي واحدة أخرى سواها .. !

وبات امر ليلى متوقفا على ايما الذي يبدأ فيحقن حياض الكبرياء ؟!

لقد انت كرامتي بادىء ذي بدء ان تقبل لي الرجوع اليها صاغرا .. ولكني احسست بان الصراع غير متكافىء ، وانني اذ استعمل قوتي في اذلالها وهي الضعيفة ـ لابدو في مرآة ذاتي جلفا قاسيا ..!

ولم يدم الاعصار طويلا .. اذ لم يات اليوم الثالث لمرضها حتى كنت ايمم بقدمي ـ راسا الى ... بيتها ... !!

دخلت على ليلى وسط دهول (نعمى) افراد اسرتها .. وبصر ادنى ترفع وكفت ، حاسر الراس متهدلا ، حول فراشها .. !

وانتعشت حبستي ، وتألقت اشعاعات الحياة في وجهها الشاحب الذاهل البهيم .. وانتسبت في مرارة و .. بصعوبة .. تمتمت من بين شفتيها اللتين سلب المرض ارجوانهما ـ

ـ و ... هنا عندك ... تأخذ مني يا عبد العاطي ؟!

كان خنجرا أدمت به قلبي ... وكان الجواب معدا في داخل جيبي .. فقد اخرجت من سترتي ورقة مطوية شرعتها مرهوا امام عينيها ، فوق صدرها الذي اسدلت عليه الاغطية وانا اقول :

ـ ... انت يا ليلى روحي الآن كما كنت .. لقد عدنا ... رددتك يا ليلى باشهاد رسمي !

و .. ولدهشتي لم تعبأ بالقول !.. لم تثب من رقادها ثائرة ترفض وتعنف كما وطدت العزم على ان ارى ! .. ابدا .. فقط ارتعشت شفتاها المقدودتان في بسمة باكية .. وسكبت عيناها ـ اللتان عاد اليهما عنفوان الباس ـ دمعتين خفقا تعليقها المتهدج الذي رفرفته مع آهاتها الحرى :

ـ ... تأخرت يا عبد المعطي !

نعم !.. كان قد سبق السيف العذل كما يقولون ، وماتت ليلى صبيحة ذلك المساء المشئوم !!

وحملنا جميعا .. و .. حتى الصديق الصحفي الذي استفتاه كلية وانصرف هاربا من حرج الموقف ، معتذرا ، وسط سكوتنا المطبق ، تشيعه كلمات (عبد العاطي) المحمومة ، الثائرة !

ـ .. وتقول لي طلاق ؟ ... وحلال او حرام ؟! .. اكبر حرام يا أستاذ !..

حرام قطعا يا عزيزي ... !!